

سؤال الفهم بين الوحي و الواقع

أستاذة دوفاني سعاد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص

يعيش المسلمون اليوم ظروفًا و يواجهون أوضاعًا جديدة لم تعرض لهم من قبل ، مغايرة للظروف و الأوضاع التي وجدت زمن الوحي و الذي عالجهما بنصوصه المختلفة ، إذ أنّ منها ما كان سببا لنزول الوحي في أحيان كثيرة ، فتشكّلت منظومة الحياة الفكرية و التشريعية للإنسان آنذاك ، أمّا اليوم ، و مع التحدّيات المتجددة للفكر الإنساني عامّة بظهور الفلسفات و المذاهب ، يشتدّ توتر هذا التحدي في وجه الفكر الإسلامي ، و يكون مطالبًا بالإستجابة ، و هو الذي يؤسّس الحياة على دعائم الوحي، و يعلي من شأن العقل ليكون ظهيرا للوحي في قيادة الحياة.

___ فهل ما زال العقل قادرا على فهم الوحي؟

___ و هل باستطاعته تنزيله في حياة المسلمين و إخراجهم من حالة العطالة و التخلف؟

Muslims live on conditions and face new situations did not show them from before, different from the circumstances and conditions that I found a time of Revelation, and which dealt with its capitulation, different, as that of what was the reason for the inspiration landings in often, Gutian intellectual life and legislative system of the human being at the time, but today, and with renewed challenges human thought by the emergence of general philosophies and ideologies, strengthens tension this challenge in the face of Islamic thought, and be demanding to respond, and is, which establishes the foundations of life inspiration, and is reflective of the reason to be hadst inspiration in the leadership of life.

-- is still the mind is able to understand the inspiration?

-- and you can download it in the lives of Muslims and get them out of the state of inertia and underdevelopment?

من نعم الله تعالى على الإنسان أن وهبه العقل الذي جعله له أداة لفهم الوجود و فهم كل ما يمكن فهمه، و جعله ميزة له على باقي المخلوقات، و قد استطاع به أن يميّز بين الأشياء، و يدرك خواصّها، و يتوصّل إلى استنباط فوائدها مشكّلا صورا واضحة لما يحيط به من مخلوقات على ظهر الأرض ، و راح يتفنّن في استخدامه لسبر أغوار الكون و الآفاق بما فيها نفسه هو، و غير خاف على أحد ما اعترض مسيرته الطويلة من افتنان به، و إخراجة عن حقيقة ما خلق له، و استعماله في ما جلب على الإنسان الضرر المحتّم، و التاريخ عامّة شاهد على انحرافات الإنسان المتتالية في استعمال هذه النعمة و ما أدّى به إلى الانزلاقات الكبيرة عقب ذلك.

أمّا النعمة الثانية التي أريد إدراجها في هذا التّقديم هي نعمة الهداية بالوحي و الذي جعله الله تعالى موجّها للعقل، مزوّدا للإنسان بما يعينه على إدراك الحقّ من أمور يستحيل على عقله الوصول إليها.

و كما جعل الله تعالى الوحي مؤيّدا و هاديا للعقل، جعل العقل أداة لفهم الوحي و تنزيله في حياة الإنسان. فهل حدث في حياة المسلمين كلا الأمرين، أي هل أفادهم الوحي في توجيه معارفهم و مداركهم؟ و هل أفادهم العقل في فهم النصّ و تنزيله؟ ثمّ ما مدى تأثير ذلك على واقع الأمة الرّاهن؟

ستكون فقرات هذا المقال إجابة على جملة الأسئلة المطروحة في إشكاليّة الموضوع.

أ – الإنسان و العقل:

الخوض في حقيقة العقل و ماهيته ليس مرادي من البحث، إنّما أريد إضفاء بعض الوضوح على موطن من مواطن تكريم الإنسان و تمييزه عن باقي المخلوقات في قوله تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ " ⁽¹⁾، يقول سعيد حوى: " تحدّثنا عن كون الإنسان مخلوقا متميّزا متفردا بالعقل و البيان و الخلقة و القدرة على تسخير الأشياء ، و أنّ هذا العطاء من الله يقابله التّكليف، فالقيام بالتّكليف هو شكر للنعمة" ⁽²⁾. إذ جعله الله تعالى مناط تكليف الإنسان، و أساس مسؤوليّته و جزائه في الدّنيا و الآخرة، و رتب عليه صحّة أو فساد تصرّفاته و آثارها ليكون له في الدّين المرتضى عند الله مواقع مهمّة و اعتبارات مؤثّرة.

¹ -الإسراء 70

² -الأساس في التّفسير، ط 7، 1430هـ-2007م، دار السلام، مصر، ج 3، ص 334

و العقل وسيلة تعين الإنسان على الفهم و الإدراك، كذا الحكم على الأشياء و التمييز بين الأضداد، يقول عبد المجيد النجار: "و قد جاءت معاجم اللغة توجه معنى العقل و جهة الإدراك الذي يؤدي إلى النجاة، و يعصم من الهلكة." ⁽¹⁾ و لا ننسى مقام العقل في القرآن الكريم ، إذ حدّد دلالاته بدقّة و قد أورد د. نجار في قوله: " كما جاء في القرآن الكريم توجيه معنى العقل إلى تلك القوّة المميّزة في الإنسان التي تعرّفه بالحق و الخير، و تهديه إليهما، و بالباطل و الشرّ و تبعده عنهما، فهو قوّة كاشفة و موجّهة في نفس الآن، قال تعالى: " فَكُلْنَا مِنْهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَكُنَّا مِنْكُمْ شَاكِرِينَ " كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُزَكِّيهِمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ " ، و قال " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ " ⁽²⁾

و هكذا يبيّن القرآن الكريم في هذه الآية و غيرها أهميّة العقل، و أنّه وسيلة الإنسان إلى الفوز و الفلاح، أو إلى الخيبة و الخسران.

و مع تعدّد التعاريف و كثرتها، إلّا أنّ اهتمام العلماء المسلمين لم ينصبّ على بحث العقل من ناحية الوجود، بل كان التركيز على بحثه من حيث أهميته ، و دوره في حياة الإنسان كإنسان، لا سيما و قد رتب الحق تعالى خلافة الإنسان على العقل ، لتكون دليلا على المكانة التي تبوّأها في القرآن الكريم من جهة أنّه سيكون أداة لفهم و إدراك مقاصد التشريع، أثناء نزول الوحي، و بعد انقطاعه حتّى قيام الساعة ، ليضمن للنصوص الشرعيّة حيويّتها و قابليّتها لمسايرة الأحداث و تجلّدها عبر الزمان و المكان. كما أناط الشارع الحكيم تكليف الإنسان بمختلف الأحكام بالعقل، إذ أنّه أساس و شرط كلّ تكليف، و غير بعيد عن التكليف نجد الأمانة التي عجزت عن حملها السموات و الأرض، و حملها مخلوق متميّز بما لا يوجد عند سواه و هو العقل.

و من يتتبع حقب التاريخ المتتالية يجد أنّ أهميّة العقل ظهرت منذ القديم، وما الحضارات المختلفة إلّا نتاجا سامقا للإبداع العقليّ للإنسان، الذي تطوّر عبر مراحل التاريخ و حسّن من مظاهر حياته كلّها مقارنة مع باقي المخلوقات ، و التي وهبت غرائز جعلتها نموذجا للنظام و التفاني في العمل، لكنّه عمل غير عاقل و لا واعٍ ، كما هو حال التحلّ في نظامه أو التّملّ في دأبه المتواصل، أمّا الإنسان فسعيه يميّزه الوعي، و القوّة العاقلة فيه هي الدّافع إلى هذا التطوّر الدائم بدءاً بالحضارات القديمة و وصولا إلى الحضارة الإسلامية التي بلغت شوطا آخر، و نقلت الإنسان نقلة نوعيّة في المجالات جميعها، و آثار الجهد العقليّ بادية للعيان على جميع المستويات ، إذ تحوّل الرّجل البدوي البسيط إلى رجل حضارة، تمكّن من قيادة البشريّة طيلة خمسة قرون، فما الذي تغيّر؟ و أدّى به إلى الانتكاس؟

¹ - خلافة الإنسان بين الوحي و العقل، ط3، 1425هـ، 2005م، المعهد العالي للفكر الإسلامي، و م أ، ص71

² - الملك10

و إذا قلنا إنَّه العقل، فهل كان قبل الإسلام لا يملك هذه القوَّة الإدراكيَّة ؟ و الإجابة بسيطة و واضحة، و هي أنَّ العقل كان و ما يزال و سيبقى موجودا عند الإنسان ، لكنَّه قبل مخالطة الوحي كان كالألة في يد من لا يعرف كيفيَّة تشغيلها، و لما جاءه الوحي فتح مداركه ، و زوَّده بما أعطاه من شواهد توصله إلى إدراك الحقِّ ، و تحقيق الخير للإنسان في الدُّنيا بإنجاز مهمَّة الخلافة التي خلق من أجلها، و في الآخرة بتحقيق العبوديَّة الكاملة لله وحده.

ب - الإنسان و الوحي:

لئن كانت معرفة العقل محدودة من جهة و موجَّهة من جهة أخرى بوسائل المعرفة المختلفة ، فأبْقَى له أن يملك القدرة على توجيه حياة الإنسان برسم مناهجها المطلقة، الصالحة لكلِّ زمان ومكان؟ و من هنا يظهر الحجم الحقيقي للعقل الإنسانيَّ رغم ما تروَّج له الحضارة الغربيَّة من تعظيم لدور العقل ، حتَّى غدا إلها بموت الإله عندهم، أمَّا الواقع فيعارض كلَّ ما يروَّج في هذا الشأن ، إذ يظهر يوما بعد يوم قصوره لذاته ، وما تعانيه البشريَّة من ضياع و دمار إلَّا دليل على ذلك ، أمَّا الإسلام و رغم تمجيده للعقل و إشادة آيات كثيرة به و بدوره في حياة البشر إلَّا أنَّه أعطي حجمه ، و ظهرت جليَّة حاجته إلى التوجيه و التصويب، و إلى التزوُّد بالحقائق الخارجة عن نطاق عالم الشَّهادة، و التي يستحيل على العقل إدراكها لاستعلائها على حسن الإنسان.

من هنا يظهر أثر الوحي في تبصير الإنسان بحقائق الوجود، و جمع شتات المعرفة الإنسانيَّة في نظرة كونيَّة توحيدية انتظمت بها العلاقات في الوجود و انضبطت بها فهوم الإنسان و مداركه لحقيقة نفسه، و حقيقة الوجود من حوله، و حقيقة خالقه و واجبه نحوه. و حدَّد الوحي للإنسان منهاج خلافته متمثلا في أحكام عمليَّة يحقِّق من خلالها العبوديَّة الخالصة لله، و الاستعلاء التام في الوجود دونما احتقار للنفس أو تجرُّر في الكون ، بل في توازن و سير مطرد ثابت على امتداد الحياة الدُّنيا مروراً إلى الحياة الآخرة عبر الموت.

و بهذا نشأت ثنائيَّة طرفاها الوحي و العقل، تبصَّر الإنسان بضرورتها في حياته ، إذ بالوحي يتَّضح له منهاج غاية وجوده ، و للعقل أوكلت مهمَّة الفهم و التنزيل المؤدية به إلى تلك الغاية⁽¹⁾ .

و أثمر التلازم الفعلي لطرفي تلك الثنائيَّة خير أمة أخرجت للناس، كما قال تعالى : "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۚ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾" ⁽²⁾ كما استحضت أن تكون شاهدة على غيرها من الأمم في قوله تعالى: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ

¹ -عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي و العقل، ص2

إِيمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾" ^(١) ، و ذلك لأنَّ الله تعالى خلق الإنسان مستعدّاً للفهم و الإدراك، و أنزل إليه رسله مبشرين و منذرين لهدايته إلى الحقّ و الخير، و بلوغ السعادة في الدّنيا و الآخرة ، يقول محمد نعيم ياسين: "من أجل ذلك خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، و نُفِخت فيه الرّوح بأمره سبحانه لتكون موضوعاً و محلاً لكثير من الغرائز و القابليّات و القدرات التي تمكّنه من حمل الأمانة، و في مقدّمة هذه الغرائز غريزة العقل و غريزة التّفكير و غريزة الإرادة. ثمّ خلق الله تعالى للإنسان لخدمة تلك الرّوح و تنفيذ إرادتها بدناً صالحاً للقيام بما تأمره به تلك الرّوح. و لو وقف الأمر عند هذا الحد لما استطاع القيام بتلك الأمانة حتّى يأتيه الهدى من ربّه في كتب منزلة على رسل من بني جنسه تبين له الحقائق و المصير، و ما ينتقي و ما يلتزم به، و كيفيات الطّاعة المطلوبة" ^(٢) . و يواصل الكاتب في بيان حاجة الإنسان إلى الوحي لما يزوده به من أمور ضروريّة، بإيراد قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾" ^(٣) و كذلك قوله تعالى: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾" ^(٤) ثمّ يقول : "و ذلك في نصوص محمّلة بالمعاني ، جعلها سبحانه آيات منيرة قابلة لأن يستقبلها التقويم الإنساني، بحيث إذا استقبلها و نفّذها سعد في الدارين. فظهر ممّا تقدّم أن أحسن أوضاع الإنسان في الدارين مرهون بتحقيقه بتحقيق ثلاثة أمور معا: الأوّل هدى من الله عزّ و جلّ ، و الثّاني إدراك هدى الله تعالى، و الثّالث تنفيذ الإنسان ذلك الهدى" ^(٥) . و يظهر من كلّ ما سبق أنّ الوحي هو سبيل الإنسان إلى السعادة في الدّنيا باتّباع الهدى و الوصول إلى الخير و النّفع باتّباعه و في الآخرة التي ستكون حصّاداً لما كان منه في الدّنيا من عمل صالح ، و اتّباع للصراط المستقيم، لتظهر آثار الوحي جليّة في كونها المنهج القويم لتحقيق غاية الخلق و مقصد الوجود الإنساني.

ج- علاقة الوحي بالعقل: إذا تكلمنا عن ماهية كلّ منهما فسيبدو لنا عدم وجود تقاطع بينهما، إذ الأولى ملكة مخلوقة في الإنسان، و الثّاني كلام الله تعالى أنزله لعباده ليكون لهم هادياً، و قائداً نحو حياة موفّقة و آخرة سعيدة، لكنّ النّظر المدقّق يوصلنا إلى إدراك علاقة وجودية بينهما، إذ أنّ الوحي جعله الله تعالى نافذة يخلص من خلالها العقل إلى فهم الوجود ، و إدراك غايته، و الانطلاق من خلاله إلى عالمي الشّهادة و الغيب للإفادة منهما بما يقيم نظام الحياة، و يدفعها إلى الأحسن دوماً، كما أنّ الوحي لا بدّ لفهمه من عقل نير، قادراً على استنباط مكامن الخير و الصّلاح فيه من جهة ، و على تنزيله في واقع الحياة ليغدو منهجاً لها من جهة أخرى على اعتبار أنّ الله جعل

^١ -البقرة 143

^٢ -محمد نعيم ياسين ، مباحث في العقل، ط2-2011م، دار النفائس ، الأردن، ص224.

^٣ -إبراهيم 04

^٤ -التوبة 115

^٥ -محمد نعيم ياسين ، مباحث في العقل، ص224

نصوص الوحي أوعية ذات قدرة لا متناهية على استيعاب الفهوم و المعاني المتجددة ، و يفسر ذلك أهلية القرآن لقيادة البشرية إلى قيام الساعة. يقول عبد المجيد النجار: " و يتحصّل ممّا تقدّم أنّ الغاية الوجودية للإنسان ، و المنهاج المؤدّي إليها اختصّ بالإرشاد إليهما الوحي الإلهي ، و أوكلت مهمّة الفهم و الإنجاز فيهما إلى العقل البشري، و هو التّكليف الذي رتبت عليه المثوبة في حالة الفوز، و العقوبة في حالة الخسران." ⁽¹⁾

كما أنّ ترتيب التّكليف الذي احتوته نصوص القرآن و السّنّة على العقل دليل آخر على العلاقة الوطيدة بين العقل و الوحي ، إذ أنّه لا يفهم التّكليف ، و لا تدرك مقاصده إلّا بالعقل، كما لا يكلف بالتّشريعات إلّا العاقل الذي يقدر على استيعاب الخطاب الإلهي المنظم لحياته و علاقاته، ليكون وجود العقل لازمة من لوازم الإنتفاع بالقرآن، و يكون الوحي لازمة من لوازم اهتداء العقل إلى الحقّ .

و قد أخذت هذه العلاقة حيّزا من اهتمام الفكر الإسلامي ، بين من ينكر هذه العلاقة سواء ممّن غلبوا الوحي إلى درجة إلغاء العقل ، أو الذين غلبوا العقل إلى درجة تقزيم الوحي أو إبعاده عن مجالات الحياة، خاصّة المعاصرة ، و بين هؤلاء و هؤلاء بقيت هذه الثنائية بين الأخذ و الرّد ، بينما الواقع يفرض معالجة جادّة لهذه الإشكالية، بتوضيح ما يؤدّي إلى السّداد، و إلى تفعيل هذه العلاقة بما يعطي الوحي من قيوميّة، و مرجعيّة عليا، و للعقل من قدرة على الاستنباط و الفهم و التّنزيل، بدل انقسام المفكرين المسلمين في جدل عقيم لا يزيد واقعهم إلّا تعقّنا و حياتهم إلّا بعدا عن روح الوحي و صفاء العقل.

و التاريخ في الحقيقة هو المرآة العاكسة للماضي في الحاضر حتّى نستشرف منها للمستقبل، إذ لو رجعنا إلى عهد المسلمين الأوائل لوجدنا أنّهم أدركوا دون فلسفة هذه العلاقة ، و قاموا بتفعيلها فكانت عقولهم و قلوبهم في ترقّب دائم لجديد الوحي، و تلقّيه بالاستيعاب و التّطبيق فهما و تنزيلا، و لنا في نساء الأنصار خير عبرة، لما نزلت آية الحجاب شقّقن مرطهنّ و استترن بهما، لإدراكهنّ أنّ كلّ ما يأتي من عند الله لا بدّ أن يقابل بالتّطبيق الفوري ، لليقين — الذي نفتقد إليه — أنّ الخير كلّ الخير في الأوامر الإلهية المنزلّة إليهم بالوحي ، و حري بالأمة الإسلامية أن تعتبر بهذه المواقف، خاصّة و هي على يقين أنّها مواقف أنتجت جيلا من العلماء العاملين ، و رعيلا من المؤمنين المخلصين الذين حفظوا الدّين و بلّغوه للعالمين خير تبليغ، لكن عندما تجرّأت هذه الثنائية و ضاعت حقيقة العلاقة بين طرفيها، تقطّعت أوصال الأمة، و ضاع منها الرّشد ، و فقد الكتاب معناه ، كما جاء في الحديث الذي حدّث فيه الرّسول صلّى الله عليه و سلّم من يرفع العلم ، لما رواه زياد بن لبيد رضي الله عنه قال: "ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فقال وذاك عند أوان ذهاب العلم قال قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه

¹ -عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي و العقل، ص 29-30

أبناءؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة قال ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل لا ينتفعون مما فيهما بشيء " (1).

و أرى أنّ تحذير الرسول صلى الله عليه و سلم متعلّق بضياغ العلاقة الوطيدة بين العقل و الوحي ، و دليل ذلك جوابه على استفهام زياد بن لبيد ، الذي بدا عليه الاستغراب و الدهشة و هو حال كلّ الحاضرين، فكان ردّ الرسول صلى الله عليه و سلم من الواقع الذي يعايشونه و يعرفونه، بذكر أحوال أهل الكتاب الذين فقد كتابهم معانيه، أي فقد تأثيره في الحياة ، و هو تأثير مرهون بمدى فهم الكتاب، و ترجمة هذا الفهم إلى سلوك حياة منبعث منه و راجع إليه.

و لن تتأتّى هذه العلاقة إلّا بفتح باب الاجتهاد، المبنيّ على النظر و الاستنباط بما يُكسب الإنسان القدرة على اقتحام العصر، ومواجهة تغيّرات الزّمان و المكان بالوحي الذي ينتج لدينا وعيا يزوّده بالطّاقة الإبداعية التي تجعله يستوعب الماضي، و يحلّل الحاضر، ومن ثمّ يصل إلى نحت المستقبل وفق نظرة متجدّدة لا تسعى إلى تكرار صور الماضي، إنّما تهدف إلى إبداع صور جديدة للمستقبل.

د- أثر تعطلّ علاقة العقل بالوحي: عرفنا ممّا سبق أنّ العقل في حاجة إلى توجيه فوقيّ يسدّد أحكامه ، و الهدي الرّبانيّ يعلو و لا يُعلّى عليه في القيام بهذه المهمّة ، إذ الخالق أعلم بخلقه و بما يصلح أحوالهم، و يؤسّس الحياة على دعائم الوحي ليخرج البشريّة من الظّلمات إلى النّور، و سأسأّنس بالواقع و التّاريخ لإثبات صحّة هذا الطّرح، فمن التّاريخ نأخذ الحضارات القديمة و نعقد مقارنة لها بالحضارة الإسلامية، فالحضارة اليونانية أو الإغريقية أو المصرية القديمة أبدع فيها العقل بما لا تزال شواهدة قائمة إلى الآن، لكنّ الإنسان كان غائباً في كلّ المنظومة، إذ يكفي أن نعرف ما بلغه الرق و بيع الإنسان إلى درجة أنّ الرومان كان إذا احتاج الواحد منهم إلى مال لتسديد ديونه يبيع زوجته أو أولاده، و عند المصريّين القدامى، لبناء هرم لفرعون منهم يموت آلاف العبيد تحت الأنقاض و الحجارة، لا لشيء إلّا لينام فيه و كنوزه بعد موته، أمّا الحضارة الإسلامية فقد كان الإنسان محوراً، منطلقاً و منتهىها ، و ما بلوغ الحضارة مقاماتها الماديّة و الروحيّة إلّا بسلطان الوحي ، الذي قاد العقل نحو الخير و الصّلاح ، لبيدع للإنسانيّة حضارة سعت بالإنسان نحو تحقيق ذاته، و شقّ طريقه باتّزان نحو تسخير الكون، و ممارسة السيادة فيه نحو تحقيق العبوديّة لله.

أمّا إذا تحوّلنا بالحديث عن الحضارة الغربيّة التي تريد من خلال خطاب العولمة إلغاء الآخر عامّة، و المسلم و حضارته خاصّة، نجدها ترسم للإنسان طريق الضّياع الذي لم يجد وسيلة للخروج منه. يقول عبد الحميد أبو سليمان:

¹ -مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث زياد بن لبيد، مسألة 17019

"كان ضعف البعد الروحي ، و انعدام هداية الوحي، و قد تركا الإنسان الغربيّ مطلقاً مادّة رخيصة هملاً بين يدي نفسه و عقله و إدراكه البشريّ المحدود، هما أصل داء الحضارة الغربيّة المعاصرة في الغرب و الشرق، و كلّما بالغت الحضارة الغربيّة في إذابة ما بقي لها من بقايا نفحات الروح و الرّسالة ، و الرّكون دونها إلى العقل و المادّة ، كانت حالها أسوء و أزمتهما أشدّ." (1)

و حال الأمتة الإسلاميّة من انفصال الوحي عن العقل و منه عن الحياة خير شاهد على ما قدّمْتُ له ، و ذكر حديث بن لبيد مرّة أخرى يفسّر هذه الحال ، التي أضاع فيها المسلمون التمسك بالعروة الوثقى، و ضيعوا معاني الكتاب الذي ما يزال بين أيديهم ، لكنّه كمن يملك سيّارة لا يعرف شيئاً عن قيادتها، فيكتفي بالانهار بها و السّعادة الغامرة عند التّظر إليها، و هو حال المسلمين مع القرآن ، و ما له في نفوسهم من عزّة و قداسة و ما في قلوبهم من رهبة و إجلال، لكن طاقة الدّفع التي أحدثها في المسلمين الأوائل تعطلّت بعد ما يقارب خمسة قرون من العطاء و التّسامي نحو تبوّأ القمم، ليحلّ محلّه التّدهور و الانغلاق على الذات ، بالخروج من التاريخ و الانقلاب من مرحلة الفعل و التّأثير إلى مرحلة الانفعال و التّأثر، و لئن تعدّدت الأسباب فإنّ أهمّها العطالة الإبداعية التي أصابت عقل المسلم، فانخرقت به عن العطاء إلى الجمود و التّقهقر في انحدار لا يعرف وقفاً، و تظهر جليّاً حقيقة العلاقة بين الوحي و العقل الذي أصبح كلّاً على الإنسان أينما يوجّهه لا يأت بخير ، مصداقاً لقوله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۖ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾" النحل 76 . يقول جودت سعيد: " فإذا فهمنا معنى الفعاليّة و اللافعاليّة فيمكننا أن نفهم أنّ الكلمة التي وردت في الآية و هي كلمة "الكلّ" هي الكلمة القرآنيّة المقابلة لمصطلح اللافعاليّة و السّلبية ، بل كلمة القرآن أدلّ على هذا المعنى حيث إنّ كلمة "الكلّ" لا تدلّ على اللافعالية فحسب، بل تدلّ على أنّه عبء على من يتولّاه سواء كان فرداً أو مجتمعاً" (2)

و إذا أدرك المسلمون أنّ هذا أحد أسباب تخلفهم و خروجهم من الدّورات الحضاريّة المتعاقبة، فلا بدّ من التّركيز على دراسته و استخلاص العبر منه، لا سيما و القرآن الكريم يوجّه أنظار المسلمين إلى قيمة التّاريخ، و ضرورة الاعتبار من دروسه و قصصه، التي ما عرضها الله تعالى عليهم إلّا لتعفيهم من دفع الأثمان مكرّرة جرّاء تكرار الأخطاء ذاتها.

1 - عبد الحميد أبو سليمان ، أزمة العقل المسلم، ط2، 1430هـ، 2009م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، و م أ، ص 17

2 - جودت سعيد ، الإنسان كلّاً و عدلاً، ط1، 1414هـ، 1933م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص 14

هـ - العقل بين التّقدّيس و التّهميش:

و ما دمنا نتكلّم عن تعطلّ العلاقة بين الوحي و العقل في حياة المسلمين و ما أدّت إليه من عطالة، فإنّه من النّافع التّعرّض إلى وجه من أوجه هذه الإشكالية، لخطورته التي المتمثّلة في عدم انضباط مفهوم العقل في الفكر الإسلامي ، و ليس المجال في هذه العجالة التّعرض إلى ماهية العقل ، إنّما قصدت من إيضاح هذه النقطة أنّ العقل في الفكر الإسلامي تأرجح بين طرفي الإفراط حتّى أعطي منزلة تصل أو تتجاوز منزلة الوحي ، و كمثال بسيط طرح المعتزلة في نقاط كثيرة مثل خوضهم في مسألة إيجاب الأفعال الإنسانيّة، إذ يرون أنّ العقل يمكنه أن يحلّ محلّ الوحي في إيجاب الأفعال في حالة إنسان لم يبلغه وحي ، يقول عبد المجيد النّجار: " أمّا المعتزلة فإنّهم أسّسوا رأيهم في الإيجاب على رأيهم في التّقدير، فلمّا كان الوحي عندهم هو المقدّر لكلّ الأفعال الإنسانيّة، و العقل يشترك معه في التّقدير في بعض تلك الأفعال، فإنّ الإيجاب فيما اختصّ الوحي بتقديره يكون موقوفا عليه، و لا مدخل للعقل فيه. و أمّا الأفعال التي تدخل في مجال تقدير العقل، فإنّ جاء فيها وحي فهو الموجب فيها، و العقل ليس مدركا بذلك الإيجاب لإدراكه القيم التي بني عليها، و إذا لم يرد فيها وحي على إنسان ما فإنّ ذلك الإنسان يكون عقله موجبا للأفعال التي هي من جنس ما يقدر على تقديره، و يكون بالتالي مستحقّا للمدح و الدّم، وللتّواب و العقاب، و لهذا فقد أثبت المعتزلة التّكليف العقلي على من لم يبلغه الوحي " ⁽¹⁾. و هذا المثال كاف لما لقيه العقل عندهم من تقدير ساوى فيه الوحي في إيجاب الأفعال. و لعلّ هذا الموقف يؤدّي إلى إقحام العقل في ضرب من ضروب النّقص في الحاكميّة الإلهيّة بناءً على أنّ العقل و ما وهبه الله إياه من قدرة على الكشف و النّظر و التّقدير، إلّا أنّه ليس مؤهّلا للإيجاب، إذ هو من اختصاص الوحي وحده.

أمّا في الطّرف المقابل فنجد من يلغي أيّ دور للعقل، و يجعله متلقّيًا للوحي مطبّقًا له دون إمكانيّة الفهم و التّأويل و الخوض في نصوص الوحي. فقلّلوا من شأن العقل ، و غمطوه حقّه، و قصرُوا غاية المعرفة الإنسانيّة على ظاهر النّصوص ، و لا يخفى خطر هذا المنحى على حياة الإنسان، و وظيفته الوجوديّة التي لا تتحقّق إلّا بعقل مسترشد بالوحي، و فعل محكوم بالوحي و الذي لا يفهمه إلّا العقل ليستخرج أحكامه وفق مقاصد إلهيّة من التّشريع لا يصل إليها إلّا العقل. و بتهميش العقل يتجمّد، و يغلق باب الاجتهاد و الإبداع في كافّة مجالات الحياة، إذ الوحي جاء لهداية الإنسان إلى ما فيه خيره في الدّارين و أنّه لا يعيش في الدّنيا إلّا من أجل الآخرة ، و لا يكون

¹ -عبد المجيد النّجار، خلافة الإنسان بين الوحي و العقل، ص82

في الآخرة إلا على قدر ما قدّم في الدّنيا من طاعة و عبوديّة لله تستغرق كلّ أفعاله و أقواله، لتشمل نيّاته، و قد قال الرسول صلّى الله عليه و سلّم : "إنّما الأعمال بالنيّات"⁽¹⁾

و إذا رجعنا إلى مدرسة التّاريخ، فإنّها تعلّمنا أنّ ما ننجح به أسلافنا هو ثنائيّة الوحي و العقل معاً، يقول عبد المجيد النّجار: " فليس الوحي و العقل إلا وسيلتين للتعريف بالحقيقة فيما ينبغي للإنسان أن ينتهج من أنماط في الفكر و السّلوك ليتعامل مع الكون بما يؤدّي إلى غاية وجوده، فكلّ بحث فيهما من هذا الوجه يرتبط بشديد الارتباط بالبحث في حقيقة الإنسان ذاته، و في وظيفته، و في الغاية من وجوده"⁽²⁾، و متى انضبط مصطلح العقل في أذهان المسلمين، و عرفوا حقيقة وظيفته و منزلته في الشريعة الإسلاميّة بما نزل في القرآن الكريم من نصوص تشيد بالعقل، و تعلّي من شأنه، سيعرفون حينها أنّه نعمة إلهيّة رتب عليها الله تعالى التّكليف، لحاجة الإنسان إلى إدراك أحكام الشريعة الإسلاميّة، و فهم الخطاب الإلهيّ الموجه إلى البشر، الحامل لهذه التّكاليف و الأحكام، فهما يساعده على استيعاب الخطاب، و إدراك المقصد منه، و محاولة تنزيله في حياة الإنسان في إطار الظروف الزمانيّة و المكانيّة، و مساندة خصوصيّات الإنسان المتباينة، لتصلح بها في التّهاية حياته، و تستقيم بها أخلاقه و سلوكاته فيتحقّق بهذا الانضباط، الفهم الصّحيح، و التطبيق الجيّد لمقتضى النّصوص القرآنيّة.

و- ضرورة تجديد الوعي:

هي ضرورة تطرح نفسها لكونها سبيل الأمة إلى استنقاذ نفسها من دركات الانحطاط الذي تعانیه، و يتكرّس في واقعها بوتيرة متصاعدة، ليزيدها تهميشاً و بعداً عن التّأثير و الفعل، و لن يتمّ لها ذلك إلا بتجديد وعيها، فيستقرّ فيه حجم ما تعانیه و فداحة غيابها عن السّاحة الحضاريّة العالميّة، و هي المؤهّلة الوحيدة بما لديها من وحي و هدي يمكنّها من قيادة البشريّة الحائرة و هي في قمّة التّحضّر المادّي، و متى ما تمّ للأمة هذا الإدراك فسوف يتبعه إحساس آخر بثقل مسؤوليّتها في تحمّل رسالتها الهاديّة، و أخذ مواقع الرّيادة في الكون و الحياة.

و أرى أنّه من الضّروريّ _ قبل الحديث عن تجديد الوعي _ أن أتعرّض و لو بإيجاز إلى تعريف الوعي، حتّى أخلص إلى التسلسل الذي يوصلني إلى الكلام عن ضرورة تجديد الوعي.

تعريف الوعي:

إنّ كلمة "وعي" وردت في القرآن الكريم كقوله تعالى: " وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ" الحاقّة 12، و وردت أيضاً في قوله تعالى " وَ جَمَعَ فَأَوْعَى"، أمّا في الموضع الأوّل فبمعنى الحفظ و الفهم. قال سعيد حوى { " وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ" أي: و تفهم هذه النعمة و تذكرها أذن واعية، أي حافظة سامعة، أي: يحفظها و يفهمها كلّ من له سمع صحيح، و

¹ -البخاري، صحيح البخاري، باب بدء الوحي، رقم 1

² -ع المجيد النّجار، خلافة الإنسان بين الوحي و العقل، ص 35

عقل رجيج، قال ابن كثير: "و هذا عام في كلّ من فهم و وعي" ⁽¹⁾؛ أمّا في الموضوع الثّاني فهي كلمة مرادفة لجمع المال و تخزينه و عدم أداء حقّه، يقول سعيد حوى: { (و جمع) المال (فأوعى) أي فجعله في وعاء و لم يؤدّ حقّ الله منه. قال ابن كثير: "أي تدعوا النّار إليها أبناءها الذين خلّقهم الله لها، و قدر لهم أنّهم في الدّار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثمّ تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطّير الحبّ" ⁽²⁾. و يبدو أنّ كلمة "وعى" تطوّرت و هي تواكب متغيّرات الحياة، حتّى أخذت معنى الفهم الصّحيح، و الإدراك المؤدّي إلى سلامة الفكر و سداده، يقول عبد الكريم بكار "وكان علماء النّفس في الماضي يعرفون الوعي بأنّه شعور الكائن الحيّ بنفسه و ما يحيط به" ⁽³⁾ و هو يقصد أنّ هذا التعريف محدّد ضيق، ما فتى يتّسع و يتعمّق مع تقدّم الأبحاث العلميّة، و الدّراسات المتخصّصة، يواصل عبد الكريم بكار قائلا: " و مع تقدّم العلم و تعقد المصطلحات و المفاهيم أخذ مدلول (الوعي) ينحو نحو العمق و التّفرّع و التوسّع، ليدخل العديد من المجالات النفسيّة و الاجتماعيّة و الفكريّة، و صار هناك كلام كثير عن تنمية الوعي و تحليّاته، إلى جانب الحديث عن تشبّهه و انقساماته، و علاقته بالخبرة، و الثّقافة و النظام العقلي، كما اكثرت المجالات التي يضاف إليها الوعي، فهناك الوعي بالذّات، و الوعي الاجتماعيّ و الوعي الطبقيّ و السّياسي... و كثر الحديث عمّا يسمّى اللاوعي" ⁽⁴⁾. و بعد هذا التطوّر في معنى الوعي و تداخله مع كلمات قد تلبس بمعناه أحيانا كثيرة ك"الفكر" و "العقل" و "الثّقافة" و حتّى كلمة الخبرة، فالوعي هو: "محصلة عمليّات ذهنيّة و شعوريّة معقّدة، فالتّفكير وحده لا ينفرد بتشكيل الوعي، فهناك الحدس و الخيال و الأحاسيس و المشاعر و الإرادة و الضّمير، و هناك المبادئ و القيم و مركّزات الفطرة و حوادث الحياة و النّظم الاجتماعيّة، و الظروف التي تكتنف حياة المرء. و هذا الخليط الهائل من مكوّنات الوعي، يعمل على نحو معقّد جدّا، و يسهم كلّ مكوّن بنسبة تختلف من شخص إلى آخر، ممّا يجعل لكلّ شخص نوعا من الوعي، يختلف عن وعي الآخرين" ⁽⁵⁾.

و المهمّ من هذا العرض هو استجلاء مفهوم واضح للوعي، يظهر من خلاله أنّه قابل للتشكّل وفق معطيات تنعكس لتتقل الفرد أو الأمة إلى تحسين واقعها وفقا لهذا الوعي، و هو المطلوب من الأمة الإسلاميّة التي تحتاج لكي تعيد إلى العقل فعاليّته و قدرته على الإبداع، أن تحدّد وعيها بالأبعاد الخطيرة للأزمة التي تعانيها و التي يصعب تحديد معالمها بدقّة، و قد تولّى المفكّرون المسلمون بحثها، و بيان خطورة آثارها على السّير الوجودي، و الصّيرورة الحضاريّة

¹ -سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط7، 1430هـ-2009م، دار السلام، مصر، الجزء 6، ص297

² -المرجع نفسه، ج6، ص302

³ -عبد الكريم بكار، تجديد الوعي، ط1434، 1434هـ-2013م، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة، ص9

⁴ -المرجع نفسه، ص9

⁵ -المرجع نفسه، ص1

للأمة، و قد حاولوا إيجاد الحلول لها بناءً على ما اقتنعوا به من أدواء الأمة و عللها المتشابكة بعضها ببعض ، و لخصوا المطلوب في إعادة تشكيل وعي الأمة حتى يستقرّ فيه ضرورة إدراك خطورة الوضع، و استشراف الحلول الناجعة له خارج معطيات الواقع الزاهن و بعيدا عن حدود النظام الاجتماعي السائد ، و أبعاد الحياة الضنكى التي نعيشها، ما يفرض عليه من سعي إلى تحديد نفسه، و الاستعداد لاستيعاب حقائق جديدة بتغيير بنائه الخاص، و تحديد وسائله إلى ذلك، حتى يحسن الاندماج في الواقع و تفكيكه لإعادة تركيبه وفق فهم صحيح ، و نقد موضوعي، مستلهما من القرآن الكريم منهجا أقوم في إصلاح الحياة و التّهوض بها من جديد، متحسّسا الأسس و المنطلقات التي قامت عليها الحضارة العربيّة الحديثة ، متنبها يقضا من الثقافات المعاصرة التي تتجاذب الإنسان، و تفنّنها في تجاوز قيود الزمان و المكان في إطار العولمة الغاشمة.

و متى استيقظ في ضمير الأمة أهمية تحديد هذا الوعي، لصياغة و توجيه العقل المسلم نحو فهم صحيح للماضي، و استيعاب شامل للحاضر ، و استشراف ثابت للمستقبل، يستطيع العقل أن يتخلّص من قيود لطالما كبلت حركته و منعه من أداء وظيفته حتى أصبح في حالة تشبه الموت بغيابه، و لنحذر الوقوع فيما يغضب الله منّا، و هو الذي ذمّ ألوانا من التصرفات و السلوكات الخاطئة، و التي ما كان لها أن توجد لو أنّ وعي أصحابها كان يقظا و في الوقت ذاته قادرا على التأثير بالوجه المطلوب و أداء وظائفه ، مصداقا لقوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾" ^(١) و قال كذلك "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَّجْرُمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾" ^(٢) .

و تضاف إليها آيات كثيرة توجه فكر الإنسان و تنمّي وعيه من خلال حثّه على التفكير و التدبّر و الاعتبار في أحوال الوجود و سيرورة الأمم، ليعبد الرعونة و الاعتبارية عن حياته ، و يجعل فهمه للسنن الربّانية يقوده نحو الصراط السويّ، و وعيه يمتدّ إلى مواطن الخير و الإصلاح.

و هذا الطرح لا يعني غياب الوعي التام عن حياة الأمة ، إنّما أعني به أنّه لما يصل بعد إلى القدرة المحركة و الدافعة القويّة للطرح الفكري الذي يقود إلى الفعل الحضاري المرتقب ، لأنّ المتتبّع للصّحوة الإسلامية في القرنين الأخيرين يلاحظ أنّ توتّرها يشتدّ شيئا فشيئا ، خاصّة في القرن العشرين وما تلاه، نلاحظ يقظة غير مسبوقه للفكر الإسلامي، مقارنة بالحقب التاريخيّة الماضية ، يقول زكي الميلاد: "لكنّ الذي أراه أنّ الفكر الإسلامي ، و بالذات في النصف الثاني من الثمانينيات ، أصبح شديد الوعي بمسائله و قضاياها و موضوعاته، و ذلك نتيجة اقترابه المباشر من الواقع الموضوعي بكلّ تعقيداته ، و تناقضاته و تشابكاته، تواصل و تفاعلا و تحريكا . الاقتراب الذي كشف عن مناطق

¹ البقرة ، الآيات 11 ، 12

² الأنعام الآية 123،

الفراغ الواسعة في بنية الفكر الإسلامي، و التي كانت تتسع مع مرور الوقت، و عن الغياب الواسع عن العصر و قضاياها و تطوّراته، و عن أزمة الحضور في المجال العالمي بأحداثه و مشكلاته"⁽¹⁾ . و يحدّد زكي الميلاد من هذا التّفاؤل الحذر من بيان ما واجه هذه الصحوة و هذا الوعي من اندفاع و حماس أثّر في إنجاز مهمّة النهوض ، و إثمار الجهود المبذولة ، لكنّه تأثير حمل الخير الكثير ، إذ جعل هذا الفكر يترشّد و يتماسك لينضج بعيدا عن الضّجيج و الصّخب، بامتحان ذاته ، و البحث عن مكامن الدّاء ، و أسباب العطالة عن دفع حركة الفعل و التغيير في الأمّة، ثمّ امتحان مناهجه و أطروحاته لنقد تصوّراته و التّظر في وسائله حتى يدرك حاجته إلى التجديد و التطوير من خلال الاحتكاك بالواقع الدّاخلي و الخارجيّ، و التّعامل مع الأفكار عبر هذا الواقع، ليس لحلّ المشكلات ، بل لهدف أبعد و هو تحقيق الشّهود الغائب ، و تحمّل أعباء الدّعوة إلى الله و إبلاغ الحقّ إلى النّاس من خلال ممارسة وظيفة عمارة الأرض و تحقيق العبوديّة الخالصة لله تعالى، بعد الخروج بالعقل و الفكر الإسلامي من الجمود و التّحجّر ، و تركّ الحنين إلى الماضي و إنجازات الأجداد، بالخروج عن الإنكماش حول الدّات الذي كان بمثابة الشرنقة التي نسجها الفكر الإسلامي لنفسه ، و كتم أنفاسه داخلها، حتّى ينغلق عن العصر مختارا حيناً و مضطّراً آخر، ثمّ يستفيق ليجد نفسه خارج دورة الحياة أصلاً.

ز- جدليّة الوعي و الواقع:

إنّ ما طرح سابقاً من أفكار يضطرّنا كأمّة إلى الإبقاء على جدليّة الوعي حيّة مع الواقع المتغيّر ، إذ الوعي مطالب بمزيد من الإستيعاب و الإدراك للواقع المتجدّد ، الذي يعينه على تجديد نفسه ، ثمّ من خلال تجديده لتركيبه ، تزداد قدرته على فهم الواقع و الإحاطة به.

لكنّ الذي يقف عقبة في طريق بقاء هذه الجدليّة و حياتها ، هو نظرة الأمّة إلى وعيها على أنّه اكتمل، و هو الآن في أعلى درجاته التي لا ترى بعدها حاجة إلى تغييره أو تجديده ، كما تنظر إلى الواقع أنّه توقّف عن السيّورة و التغيّر ، و التزام الثّبات، و هو الخطأ الجسيم الذي يجمّد الفكر و يكبّل الوعي ، ثم بعد ذلك يأتي الفشل الدّريع في التّغيير رغم المحاولات؛ و المفروض أنّ أمّة تملك كتاب الله الهادي ، و النّور الخالد، حرّياً بها أن تبقى حياً بمواكبة الأحداث المتجدّدة في كلّ حين ، و التي تمثّل ابتلاءات أمام الفكر و الوعي الإسلاميّين، لتصل جاهزيّته إلى أعلى توتّراتها ، فيقضي على العطالة و العجز، و يستطيع تحديد نقطة الانطلاق، و تحقيق الشّروط التي يتطلّبها النّجاح، لبلوغ الأهداف المبتغاة بإذن الله.

ولا ننسى خطورة غياب هذه الجدليّة ، بما يجعل الوعي -إن وجد- مستعملاً في غير نافع، كانشغال مفكرينا -و هو مثال بسيط- بمسألة الفِرْق ، و الخوض في تفاصيل قضايا لم تعد موجودة ، و الانكباب على دراسة أسباب

¹ -زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات و مراجعات، ط1، 2012، الشبكة العربيّة للأبحاث و النشر، بيروت، ص11

نشأتها و تطوُّرها، و نقد أفكارها، و ربَّما إخراج أصحابها عن المِلَّة لانحرافاتهم المختلفة، و الغلوّ الذي نسب إليهم، و كان -بدل هذا الانشغال- من الواجب تركيز الاهتمام على الانحرافات العقديّة الخطيرة ، التي يعيشها العالم اليوم ، و تتبنّاها الفلسفات و المذاهب المعاصرة، لدراستها و استيعابها، و الاستجابة إلى تحدّياتها، ثمّ التصدّي لها و تقديم البديل -و هو المهم في العمليّة كلّها- ، للخروج من حالة الانفعال إلى الفعل ، و الابتعاد عن المرحلة الدفاعيّة التي طالما عاشها الفكر الإسلاميّ ، وجعلت إنتاجه دائما ردّ فعل على تحدّيات وجدت، و تركت بصماتها لتأتي بعدها تحدّيات جديدة تضطرّه إلى البقاء في هذه الحالة، و عدم التمكن من تجاوزها، أو سدّ الطريق أمام تسلسل حلقاتها التي يُحكّم الباطل و أهله إغلاقها ، لتخنق الإبداع الإسلامي، و تشلّ قواه عن طرح البديل في ساحة الفكر ، و الذي إذا ما تمّ فسوف يحقّق الباطل و يضطرّه إلى التراجع.

و يحضرنني في هذه الفكرة مثال بسيط، يوضّح ما قمت بطرحه و هو محاولة إقناع مجرم تعودّ على السرقة، و اتّخذها وسيلة للكسب، و عندما يقتنع لا حاجة إلى الاستمرار بتذكيرة بحكم السرقة و الكسب الحرام، ما دام قد ترك سبيل الإجرام، لكنّه يبقى في سلوكه و فكره فراغ، يجب استغلاله و إلّا عاد أكثر إجراما و عدوانيّة ، إذ كان عليّ أن أدلّه إلى خيريّة المال الحلال، و أفتح أمامه أبواب البرّ بمساعدته على ولوجها، حتى أتأكّد من تخطّيه لما كان فيه. فكذلك وعي المسلمين و فكرهم الذي يجب أن يركّز على متغيّرات الزّمن الحاضر ، و معالجة مشكلاته و تحدّياته، و جعل الماضي للاستئناس و استخلاص العبر ، المساعدة على تصوّر جديد للمشكلات الجديدة و حلّها، بطرائق جديدة، و بوتيرة متزايدة كوتيرة الأحداث نفسها، و إلّا بقينا نعاني من التأخّر الدائم، و عدم اللّحوق أبدا بالواقع الذي سيكون بالنسبة لنا ماضٍ. يقول عبد الكريم بكار: " كثيرا ما يعاني الوعي من بقاء متابعته للواقع، و هذا البطء يجعل الوعي متخلّفا عمّا ينبغي أن يكون عليه عقودا و أحيانا قرونا، ممّا يجعل كثيرا من جهودنا غير ذي معنى. و هذا التخلّف يقع في حقول الأساليب و الوسائل".⁽¹⁾

خاتمة:

و لئن كان من التحدّيات الراهنة عجز العقل المسلم عن الإبداع مدّة من الزّمن، جعلته يدور حول نفسه، يستهلك ذاته بدل تجديد طاقاته الإبداعيّة التي لا ينفكّ عنها، فإنّ حقيقة العلوم و المعارف و الحضارة دائما تراكم للخبرات البشريّة ، و مواصلة العقل عمله بصفة مطّردة تبرهن على توسّع دوائر الفهم، و تلاقح طاقات العقل مع الواقع، بما فيه من ثقافة و مفاهيم و تحدّيات، لتوليد الجديد من الفكر، و المزيد من إنجازات العقل الباهرة؛ و هو ما أمر به القرآن الكريم من إعمال العقل عبر التدبّر و النّظر في آيات الكون المشاهدة في الآفاق و الأنفس، و التي تحث المسلم على النّظر حوله و في نفسه ليلاحظ و يتوصّل إلى صفاء الدّهن ، بزوال غشاوة الجهل عنه، حينها فقط يستطيع أن

¹ - ع الكريم بكار، تجديد الوعي، ص22

يوسّع من حقل مداركه ، و تكون له القدرة على التّحارب مع المعطيات المتجدّدة، ليكتشف سنن الله في الخلق، و يفقه حركة الوجود في أبعاده المختلفة، و يغيّر من عناصر رؤيته فيتغيّر الكون من حوله، و تكون هذه هي بداية رحلته العلميّة بين التجدّد الدّائم و الفاعليّة المتزايدة، عبر حدوث التّوتّر المنتج ، و الهمّ الجادّ الذي يتطلّع إلى الماضي من حيث كونه خبرات قديمة يمكن بعثها من جديد، سواء بالنّقد أو التّمحيص، أو البحث فيها عن مكامن القوّة و الضّعف معاً؛ أمّا العقل المسلم فواجه مضاعف نحو الماضي عساه يجد فيه آفاقاً جديدة للفهم ، تجعله يتجاوز بهدوء الوقوع في أسرهما كما هو الحال، ثمّ تكون له التفاتة إلى الحاضر، ليجعله عاملاً من عوامل التجدّد و الانبعاث ، بالتّظر إلى المعطيات من داخله و من حوله و من خارجه، ويمارس معه الدور نفسه، ليتم له التّجديد والتّوليد معاً؛ و أخيراً يتطلّع إلى المستقبل فيستشرف لأتمته موضعاً في دائرة الفعل ، بامتلاك وسائله و أدواته، و الانخراط في حركة نهضويّة جديدة، منهجه في ذلك الاجتهاد الذي أراده الله تعالى أساساً للبنية العقلية الإنسانيّة ، و كان متفرداً بتوفير وسائل المعرفة للإنسان من جهة، و من جهة أخرى إعلاء قدر الاجتهاد يجعل الأجر ملازماً للمجتهد في حالة الخطأ و الصّواب، ليكون بذلك قد أسّس لبنية دائمة الانفتاح ، مستمرة العطاء ضماناً للحركة التّوليدية التي تحفظ العقل من الجمود و التقليد ، الذي يؤدّي به إلى التّأسّن و التّحلّل الذاتي و ما يتبعه من نتائج و آثار تعيها الأُمّة الإسلاميّة و تعيشها إلى إشعار جديد.